مقام الإخلاص في النظرات القرآنية لسعيد النورسي

الملخص

ذ. عبد العزيز انميرات[1]

قضية الإخلاص رأس القضايا التي يتعيّن العناية بها في رسائل النور، لما له من أهمية وفوائد، وبيّن إجرائيا مسالك تحصيله وتنميته، منبها إلى أهم موانعه وعوامل إعاقة تحصيله، ذلك أنّه يمثّل مدخلا رئيسا لضبط العلاقة بالله، هذه العلاقة تعدّ رأس ما تستجلب به الآدمية الحقيقية التي يعيش فيها الإنسان داخل دائرة التكريم، وكلّ تلك المعاني مستحلبة من القرآن الكريم كما تفاعل معه النورسي في رسائله.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، الإخلاص، الإنسان، النورسي

* * *

The Place of Sincerity in the Qur'an-Based Views of Said Nursi

ABSTRACT

Dr. Abdul Aziz Inmirat

Sincerity is a basic factor and most important issue that must be taken care when studying Risale-i Nur. It is a principal concept that blossoms great benefits. Nursi, in the Risale-i Nur, illustrates practical methods to gain sincerity. He also warns against obstacles that might hinder its achievement. Sincerity is the main key to be in a good relationship with God. This relationship is what brings man back to his real humanity to live within the state of honor granted to him by God.

Keywords : Quran, Sincerity, Human, Nursi

* * *

توطئة

إذا كان من المعروف عادة عند الذين يكتبون في الرجال وسيرهم وآثارهم الفكرية أنهم يبدءون بالبحث عن النشأة والبيئة الأسرية والاجتماعية ومختلف المراحل التي يقطعها الرجل في حياته، ناهيك عن البحث عن شيوخه وتلامذته ومصادر تكوينه الفكري والمعرفي؛ فإن البعض الآخر -ونحسب أنفسنا منهم- لا يهتم كثيرا بهذا الضرب من الكتابة بقدر ما ينصب اهتمامهم الكبير بالرجل والفكرة أو الأفكار التي آمن بها وجاهد من أجل إشاعتها، في محاولة لقراءة الشخصية والعصر من خلال هذه الفكرة، خاصة إذا كان هذا النوع من الرجال ينتمي إلى عصر الأزمات الحضارية التي لا يقتصر أثرها السلبي على معاش الناس بقدر ما يمتد -بشكل سرطاني- إلى الجوانب الأساسية المكونة لهويتهم وشخصيتهم الحضارية، ومنها على وجه الخصوص الجانب المرتبط بالاعتقاد وأساليب التدين.

وإلى جانب ما سلف لا يهتم هذا القسم من المؤلفين والباحثين بهذا الضرب من المعطيات فقط، بقدر ما يمتد بحثهم إلى أثر هذا النوع من الرجال في عصرهم بل وفي الأجيال اللاحقة، بما يكفي لأن يشكل توجها مذهبيا يحمل فكرة محددة، وينهج أسلوبا خاصا في التفكير والتعبير والتدبير، يجعله -في نهاية المطاف- مدرسة في الفكر والمنهج، قائمة بذاتها تحتاج من الدارسين إلى الوقوف على نموذجها، لا لتقويمها أو تقييمها مضمونا وأسلوبا فقط- وإنما للاستفادة من عوامل تكونها ونجاحها في التأثير في واقع الناس، ومن ثم تجاوز أسباب فشلها في مواقع محددة من هذا الواقع، خاصة إذا تعلق الأمر بالفكرة التي تنتمي-قلبا وقالبا- إلى اتجاهات الإصلاح والتغيير في العالم الإسلامي.

وقد لا نجانب الصواب إن أكدنا -في هذا السياق- على أن القيام بتغيير واقع المسلمين، وخاصة منذ تعرض العالم الإسلامي لغلبة الثقافة العلمانية الغربية، فعل ليس بالأمر الهين كما يعتقد البعض؛ ذلك أن الواقع يفرض سطوته على قطاع عريض من الناس بما يكفي لتثبيت دعائم السكون والجمود والثبات في حياتهم بالشكل الذي صوره القرآن الكريم في أكثر من موضع من مثل: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٢] ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾،[البقرة:١٧٠] وهو الشكل الاجتماعي الذي جاهد من أجل تغييره الأنبياء والرسل ومن سار على نهجهم من الصالحين والعلماء عبر التاريخ.

وقد لا نختلف مع الكثيرين إن قلنا إن هذه المشكلة تزداد حدة كلما فشلت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي في تحقيق مرحلة تنزيل الواقع الجديد، وإقناع الناس-الذين ألفوا العيش بداخل دائرة الواقع الجامد والساكن- بأن الضرورة التاريخية تقتضي تبديل الحال بما يكفي لنقل الشخصية المسلمة من حال الغثائية الحضارية والخبال الثقافي إلى حال الخيرية والشهادة على الناس. ولعل في استحضار مسار الحركات الإصلاحية بالعالم الإسلامي، قديمها وحديثها، والقيام بقراءة متفقهة لتجارب المصلحين، ما يسمح -على الأقل- بتكوين صورة عامة عن صيرورة المنهج في تجارب الإصلاح، وصياغة استراتيجية مستوعبة ومتجددة لفقه المنهج الإصلاحي، حتى نستفيد من تجارب السابقين، مكملين ومجددين بحسب تغير الأحوال وتبدل الظروف.

من هنا يأتي اهتمامنا بالعلامة بديع الزمان سعيد النورسي (رحمه الله)، من جهة فهم الرجل من خلال الفكرة التي كان يحملها، وعاش يدافع عن شرعيتها، ويؤصل لمنهج انتشارها بين طلاب النور، خاصة وقد عاش في زمن مليء بالمكاره والابتلاءات التي أعطت لرسائله وتجربته أهمية كبيرة في دائرة العمل الإصلاحي ذي الوجه التربوي الذي يرتكز على مبدإ تصفية النفوس وتجديد الرؤية باتجاه ماهية الإنسان من داخل خطاب القرآن الكريم.

١ - النورسي: مكانة الرجل من خلال الفكرة

ينتمي العلامة النورسي رحمه الله إلى الجيل الذي تفتح وعيه الديني والفكري على الأزمة العامة التي اجتازها العالم الإسلامي، سياسيا واقتصاديا وتربويا وفكريا... الشيء الذي أعطى لفكره التربوي حضورا متميزا وقوة خاصة مكنته من الإسهام في مسار التصحيح الذي عرفه العالم الإسلامي منذ تعرفه، عن قرب، على النموذج الثقافي العلماني الحامل لمشعل تقويض الأسس العامة لكيان الأمة الإسلامية. وقد اشتهر النورسي بضرب متميز من التأليف والكلام عكس في مجموعه الوجه القاتم لعصره الذي كان يتسم بالقلق الحضاري والاضطراب السياسي والتفكك العام الذي بدأ يعرفه النظام السياسي للدولة العثمانية. كما عكس-إلى جانب ذلك- الهم الدعوي الذي كان يحمله ويعاني من أجله الكثير من المحن والتضييق.

وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل يؤلف رسائله في إثبات وجود الله وتصحيح مفهوم التدين في أفهام الناس، ويسهم في مقاومة الانحراف الذي نخر أبناء الأمة من جراء سيطرة الفكر المادي وشيوعه. وقد استطاعت هذه الرسائل تحقيق قفزة مهمة في باب

التذكير بحقيقة الإسلام وضرورته لحياة الإنسان، والتأكيد على أهمية القرآن الكريم في صفاء النفس ومعرفة الحقائق وتحقيق التوازن الحضاري المطلوب، الشيء الذي يفرض على العاملين في حقل الثقافة الإسلامية المعاصرة ضرورة التعرف عن كتب على هذا النموذج الفكري من جهة، والتعريف به في أوساط الجيل الحالي من أبناء هذه الأمة الذين استهلكت الثقافة المادية والإلحادية حيزا كبيرا من تفكيرهم، بل وشوهت رؤيتهم تجاه هويتهم وحقيقة انتمائهم لعقيدة الإسلام، من جهة أخرى.

لقد شارك الإمام النورسي (رحمه الله) في حلقات سلسلة الإصلاح وتجديد العهد بالله جل جلاله، وذلك من خلال رسائل النور الموجهة -ابتداء- لطلاب النور وخدام القرآن الكريم في كل بقاع العالم الإسلامي، مرشدا ومنبها وواعظا وبانيا بفكر تأسس على فقه خطاب القرآن الكريم وسيرة الرسولﷺ.

من هنا جاءت هذه المداخلة، إسهاما منا في إلقاء نظرة موجزة على فكر هذا الداعية، وذلك من خلال محور الإخلاص الذي تحدث عنه في رسائله، بل وأفرد له بابا خاصا في مجموعة اللمعات، لما له من أهمية في صناعة حياة طلاب النور وخادمي القرآن الكريم. وقد اخترنا هذا المحور بالذات من سلسلة ما ألفه من رسائل لما للإخلاص من أثر تربوي في تصويب علاقة الإنسان بالله تعالى وقبول مختلف الأعمال، بل ولما له من أهمية بالغة في حياة العاملين في حقل الدعوة إلى الله جل جلاله، لأنه يحقق الأخوة في الله من جهة، ويسهم في إتباع الحق والدفاع عنه، وينجي من الحسد والرياء ومختلف معيقات العمل الصالح، وهي المحاور التي بنى النورسي عليها رسالته التربوية، من جهة أخرى.

كما يعود اختيارنا للحديث عن هذا المحور بالذات -دون غيره- إلى رغبتنا في التنبيه على أهمية الإخلاص في حياة المسلم المعاصر وأثره في صناعة جيل القدوة والقيادة وأمة التمكين، المحاصرة -من كل جهة- بكل أشكال الفتن والأهواء الشيطانية.

فانتشار سلوك الحسد والرياء والبغض والنفاق... من شأنه التأثير في عمل المسلم، لا من جهة عدم قبول الله تعالى لعمله فقط، ولكن من جهة تدني قيمته وتسببه في انحطاط المسلمين كذلك؛ إذ كلما انتفى الإخلاص عن العمل تعرض صاحبه للإحباط والبطلان المؤدي إلى الانسلاخ عن الدين الصحيح.

فما أحوج المسلمين إلى التخلق بالإخلاص، بمعرفة أهميته وسبل تحقيقه وبواعثه وموانعه، ليصل المرء -في نهاية المطاف- بالتربية والمجاهدة الدائمة للنفس والهوى

والشيطان، إلى منزلة السائرين إلى الله جل جلاله، أولئك الذين يقولون ما قاله الرسول ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.الأنعام:١٦٢

٢ - أهمية فقه القرآن في أدبيات النورسي

على هذا الأساس تكلم النورسي، كما تكلم غيره من السابقين والمحدثين، عن أهمية الإخلاص في حياة أصحاب الخدمة القرآنية، وذلك ضمن نظراته الدقيقة التي ضمنها سلسلة (رسائل النور)، المؤسسة -ابتداء وانتهاء- على أرضية الفهم العميق إلى القرآن الكريم الذي يتميز بحكمة ربانية عالية، تلقن الإنسان منهج التربية في حياته الشخصية والاجتماعية، فضلا عن رجحان القرآن الكريم على سائر الكلام وسموه على الأقوال قاطبة؛[2] وبذلك يعتبره منبع الإصلاح وخطواته على مستوى النفس والمجتمع. فهو منهل السبل الصائبة التي لخصها النورسي في طريق العجز والفقر والشفقة والتفكر.[3]

يستقي النورسي نظراته التربوية لجيل الصالحين وقدوة الدعاة في عالم الغلبة فيه لغير المسلمين، من خطاب القرآن الكريم، الذي عليه مدار الأمور كلها، لأنه كتاب الإنسان، المتضمن للمعرفة الحضورية التي يعيشها المؤمن على وجه الخصوص، قلبا وقالبا، روحا وعقلا، بل ويترجمها إلى مجموعة من المواقف الحياتية، ومن هذا يفهم لماذا لخص النورسي، رحمة الله تعالى عليه، هذه الصلة الوثيقة الموجودة بين الإنسان المؤمن والقرآن بقول جامع: ''المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم.''[4] كما أنها هي التي ''تنقذ أسس الإيمان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيمان وتحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة، حتى يحكم كل من يمعن النظر فيها بأنها أصبحت ضرورية في هذا العصر كضرورة الخبز والدواء''.[5]

يتبين مما سلف أن النورسي كان دائم التركيز على ضرورة الانطلاق من الفهم القرآني للإنسان حتى يصح فهم هذا الأخير للقرآن، فتصح من بعد ذلك صلة الإنسان بالله جل جلاله، خاصة في عصر اشتدت فيه قيم الإلحاد والفوضى والعبثية، فيكون من الضروري إعادة توجيه أنظار الناس -على الدوام- إلى القرآن الكريم الذي لا يقتصر خطابه فقط على تحقيق توحيد الخالق، وإنما يصل -إذا صحت الصلة به وتوطدت- إلى تحقيق الوحدة الثقافية للمسلمين، ولا يتحقق هذا المبتغى إلا إذا قمنا -وكما يقول- بتوجيه حاجات المسلمين الدينية كافة شطر القرآن الكريم مباشرة، لينال الكتاب المبين من الرغبة والتوجه الناشئة من الحاجة إليه أضعاف أضعاف ما هو

مشتت الآن من الرغبات نحو الألوف من الكتب، بل لكان القرآن الكريم مهيمنا هيمنة واضحة على النفوس، ولكانت أوامره الجليلة مطبقة منفذة كليا، وما كان يظل كتابا مباركا يتبرك بتلاوته فحسب.[6]

هكذا إذن كان النورسي رحمه الله يراوح الخطو بين القرآن والحياة التي عاصرها بكل أثقالها ومشاكلها وتحدياتها التي دفعته إلى اختيار منهج في التأليف الدعوي مؤسس على ما يمكن أن نسميه بفقه الحضارة، وذلك من خلال الدعوة إلى تجديد صلة المسلمين بالقرآن بما يكفي لتحقيق نهضة الإنسان نهضة حقيقية تبلغ به درجة السيادة والكمال. وبهذا، فمدار رسائل النور على القرآن، وما يستفاد منها هو في أصله المستفاد من فيض هذا القرآن، ولذلك جاهد وناضل برسائله التي هي خلاصة جهاده في الحياة، من أجل هذا القرآن، فكان جهاده معركة للمرابطة عن القرآن وأسراره وحقائقه في زمن انشغل فيه الناس بالعديد من المعارك الهامشية،[7] عن حماية الأصل الذي هو القرآن، وفي هذا يقول: ''ما دامت خدمة الإيمان والقرآن أسمى من أية خدمة في هذا العصر، وأن النوعية تفضل الكمية، وأن التيارات السياسية المتحولة المتغيرة وأحداثها المؤقتة الزائلة لا أهمية لها أمام خدمات الإيمان الثابتة الدائمة، بل لا ترقى لمقارنتها ولا يمكن أن تكون محورا لها، فينبغي الاطمئنان بما منحنا ربنا، سبحانه وتعالى، من مرتبة نورانية مفاضة علينا من نور القرآن المبين''.[8]

لقد أسس النورسي رسائله الإيمانية على قاعدة صلبة، سلف ذكرها، وهي تصحيح فهم الإنسان لعلاقته بالله جل جلاله، وذلك من خلال فقه القرآن الذي يبين له ماهيته[9] وطبيعة وجوده،[10] بل وحريته من خلال عبوديته الخالصة لله عز وجل؛[11] على اعتبار أن هذا الضرب من فقه الإنسان هو الذي يجعل حياته وأعماله وكل نياته خالصة لله عز وجل، بما يكفي لأن يحقق التحرر من كل معوقات فعل الخير والعدل والإحسان؛ إذ الإنسان ''الذي ينتسب إلى سلطان الكون برابطة الإيمان، ويكون عبدا له، تتنزه شفقته الإيمانية عن التجاوز على حرية الآخرين وحقوقهم، مثلما ترتفع شهامته الإيمانية وعزته عن التنازل بالتذلل للآخرين والانقياد لسيطرتهم وإكراههم... إن خادما صادقا مخلصا للسلطان لا يتذلل لتحكم راع وسيطرته، كما لا يتنازل أن يفرض سيطرته على مسكين ضعيف. فبمقدار قوة الإيمان، إذن، تتلألأ الحرية وتسطع. فدونكم خير القرون، العصر السعيد، عصر النبوة والصحابة الكرام''.[12]

يستفاد مما سلف ذكره أن النورسي -رحمه الله- كان رجل القرآن حتى النخاع، وقد ترك لطلاب النور تراثا مهما إسهاما منه في مسيرة تقويم اعوجاج فهم الإنسان

وإدراكه، وتصويب صلته بالله عز وجل، وذلك من خلال القرآن الكريم الذي قال الله عز وجل واصفا إحدى خصائصه ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾. الإسراء:٩

وقد تعلم النورسي من هذا القرآن ما خلصه من فتن الحياة الدنيا وزخرفها، وهو في كل ذلك ككل الذين أسسوا فهمهم لماهية الوجود البشري من خلال آيات القرآن الكريم، فتخلصت حياتهم وأعمالهم بل ونياتهم، من فتن الدنيا واعوجاج الثقافات المادية، وجعلوا حياتهم -برمتها- خالصة لوجه الله تعالى؛ إذ لا يمكن أن يخلص لله إلا من عرف حقيقته وطبيعة صلته به جل جلاله.

٣ – مقام الإخلاص عند النورسي

من هنا جاءت اللمعة الحادية والعشرون من كتاب اللمعات للنورسي التي خصصها لقضية الإخلاص، منبها -من خلال ما جاء فيها- طلاب النور وخدمة القرآن الكريم إلى أهميته، وخاصة فيما يتعلق بالأعمال الأخروية. يقول في بداية حديثه عن هذه اللمعة: ''يا إخوة الآخرة، ويا أصحابي في خدمة القرآن، اعلموا -وأنتم تعلمون- أن الإخلاص في الأعمال، ولا سيما الأخروية منها، هو أساس وأعظم قوة، وأرجى شفيع، وأثبت مرتكز، وأقصر طريق للحقيقة، وأبر دعاء معنوي، وأكرم وسيلة للمقاصد، وأسمى خصلة، وأصفى عبودية''.[13]

إن من يقرأ هذه اللمعة من اللمعات النورانية للنورسي، سيقف على الدعوة المتواصلة إلى ضرورة بذل الطاقة والجهد للظفر بالإخلاص الذي سيخلص الإنسان، العابد لله وحده، من السقوط في الدوامة اللامتناهية من المطامع الدنيوية الدنيئة والمضرة، والتي لا طائل من ورائها، ولذلك -وكما يقول- ''نحن مضطرون إليه، بل مكلفون به تكليفا، وأحوج ما نكون إلى ترسيخ سر الإخلاص في ذواتنا، إذ لو لم نفز به لضاع منا بعض ما كسبناه من الخدمة المقدسية لحد الآن، ولما دامت واستمرت خدمتنا، ثم نحاسب عليها حسابا عسيرا، حيث نكون ممن يشملهم النهي الإلهي وتهديده الشديد في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ البقرة:٤١ بما أخللنا بالإخلاص فأفسدنا السعادة الأبدية، لأجل مطامع دنيوية دنيئة، مقيتة، مضرة، مكدرة، لا طائل من ورائها ولا فائدة، إرضاء لمنافع شخصية جزئية تافهة أمثال الإعجاب بالنفس والرياء، ونكون أيضا من المتجاوزين حقوق إخواننا في هذه الخدمة، ومن المعتدين على نهج الخدمة القرآنية، ومن الذين أساءوا الأدب فلم يقدروا قدسية الحقائق الإيمانية وسموها حق قدرها''.[14]

هكذا يعالج النورسي المسألة الأساسية في علاقة الإنسان العابد بالله المعبود، وذلك من خلال التركيز على التربية القرآنية للإنسان على الدوام؛ إذ يراقب الإسلام بدقة عالية السلوك الباطني والظاهري للإنسان، وخاصة منها ذلك المتعلق بشطر النيات وما يلابسها من عواطف وانفعالات وميولات، وما يتصل بها من بواعث.

لهذا يذكر النورسي أهل القرآن الكريم بأنه لا وثوق بالنفس الأمارة بالسوء التي يسيطر عليها الشيطان الرجيم، بل والحرص على دفع موانع الإخلاص واجتناب كل ما يعكر صفو الروح الإيمانية للإنسان العابد المتصل بالله تعالى على الدوام حتى لا يحبط عمله.

ولأجل تحقيق هذه الخطوة المهمة في حياة خادم القرآن، وزع النورسي حديثه إلى ثلاثة محاور متكاملة، تطرق في أولاها إلى سبل الظفر بالإخلاص والحفاظ عليه ودفع موانعه وإزالتها، وتحدث في ثانيها عن أهم أسباب كسب الإخلاص، في حين خصص ثالثها لبيان أهم موانع الإخلاص وأسباب الإخلال به.

أولا: في أهم شروط الظفر بالإخلاص والحفاظ عليه

لقد سمى النورسي هذه الشروط بالدساتير التي ينبغي الأخذ بها، وهي أربعة:

الدستور الأول : ابتغاء مرضاة الله في العمل.[15]

الدستور الثاني: عدم انتقاد الإخوان العاملين في الخدمة القرآنية، وعدم إثارة نوازع الغبطة بالتفاخر والاستعلاء، إذ طلاب رسائل النور وخدام القرآن أجزاء وأعضاء في شخصية معنوية جديرة بأن يطلق عليها الإنسان الكامل، ونحن جميعا بمثابة تروس ودواليب معمل ينسج السعادة الأبدية في حياة خالدة. فنحن خدام عاملون في سفينة ربانية تسير بالأمة المحمدية إلى شاطئ السلامة، وهى دار السلام.[16]

الدستور الثالث: معرفة أن القوة جميعا هي في الإخلاص لله واتباع الحق، ذلك أن الخدمة في سبيل الإيمان والقرآن هي دليل بذاتها، على أن القوة في الحق والإخلاص؛ فشيء يسير من الإخلاص في سبيل هذه الخدمة يثبت هذه الدعوة، ويكون دليلا عليها.

الدستور الرابع: الافتخار بالإخوان والفناء فيهم بما يكفي لأن ينسى كل أخ حساسياته النفسانية، ويعيش فكرا مع مزايا إخوانه وفضائلهم، حيث أن أساس المسلك والمنهج هو الأخوة في الله. يقول: ''وما دام مسلكنا هو الخليلية، فمشربنا إذا الخلة، والخلة تقتضي صديقا صدوقا، ورفيقا مضحيا، وأخا شهما غيورا. وأس

الأساس لهذه الخلة هو الإخلاص التام... فالذين دخلوا ميدان خدمة القرآن الكريم المقدسة بوساطة رسائل النور لا يهوون بإذن الله في مثل تلك الهاوية، بل سيمدون النور والإخلاص والإيمان قوة".[17]

ثانيا : في أهم أسباب كسب الإخلاص والمحافظة عليه

إذا كان ما سبق أهم الشروط التي ينبغي لخدام القرآن الكريم الأخذ بها؛ فإن النورسي وضع -إلى جانب ذلك- أهم سبب -في نظره- لكسب الإخلاص، وأعظم وسيلة مؤثرة للمحافظة عليه، والمقصود بذلك رابطة الموت؛ إذ طول الأمل يثلم الإخلاص ويفسده ويسوق الناس إلى حب الدنيا والرياء؛ في حين تنفر رابطة الموت من الرياء، وتجعل المرابط معه يحرز الإخلاص؛ وذلك بتخليصه من دسائس النفس الأمارة بالسوء، عن طريق تذكر الموت وملاحظة الفناء الدنيوي. وقد استطاع الكثير من العابدين، ومنهم الصوفية، إزالة توهم البقاء وحلم الأبدية الذي يولد طول الأمل، وذلك عن طريق الاستحضار الدائم لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.[آل عمران:١٨٥]

غير أن النورسي يبين أن المسلك الذي يسلكه طلاب النور يختلف عن مسلك الصوفية، فلا يرى هؤلاء الطلاب أنفسهم "مضطرين مثلهم إلى مباشرة تلك الرابطة بالافتراض والخيال، فضلا عن أن هذا الأسلوب لا يلائم منهج الحقيقة. إذ التفكر بالعقبى ليس هو بجلب المستقبل إلى الحاضر خيالا، بل الذهاب فكرا من الحاضر إلى المستقبل، ومشاهدة المستقبل من خلال الحاضر الواقع كما هو في الحقيقة؛ فلا حاجة إلى الخيال، ولا يلزم الافتراض؛ إذ الإنسان يمكنه مشاهدة جنازته وهي ثمرة محمولة على شجرة عمره القصير، وإذا ما حول نظره قليلا لا يرى موته وحده، بل يرى أيضا موت عصره، حتى إذا جال بنظره أكثر يرى موت الدنيا ودمارها، وعندها ينفتح أمامه الطريق إلى الإخلاص التام".[18]

والسبب الثاني في إحراز الإخلاص -عند النورسي- يكمن في ضرورة أن يكسب المرء حضورا وسكينة بالإيمان التحقيقي، وباللمعات الواردة عن التفكر الإيماني في المخلوقات؛ إذ بهذا الضرب من الأمل يستطيع المرء الوصول إلى معرفة الله تعالى، فتكون النتيجة النهائية لهذه المعرفة حصول الطمأنينة والسكينة في القلب؛ وهو بهذا النوع من الحضور والسكينة ينجو من الرياء،فيظفر بالإخلاص.[19]

ثالثا : في أهم موانع حصول الإخلاص

وفي السياق ذاته، ولتأطير حديثه عن قضية الإخلاص وأهميته في حياة المرء العابد، وبعد أن تحدث عن أهم الشروط وأسباب الاحتراز والكسب؛ ينتقل النورسي بطلاب النور إلى نقطة نحسبها مهمة جدا في هذا المقام، ويتعلق الأمر بالكلام عن أهم موانع الوصول إلى الدرجة المطلوبة من الإخلاص؛ وقد لخصها النورسي في ثلاثة موانع، حدد أولاها في الحسد الناشئ من المنافع المادية، والذي لا يقتصر على إفساد الإخلاص فقط، بقدر ما يعمل على تشويه نتائج العمل،ويفوت حتى تلك المنافع المادية أيضا؛ ذلك أن الرغبة في تحصيل هذه المنافع وترقبها بدافع من أثرة النفس الأمارة بالسوء، بل وحرصها على كسب المنافع ذاتها، تثير في المرء عرق الحسد، وتحرك نوازعه تجاه أخيه وصاحبه في الخدمة القرآنية والإيمانية، فتكون النتيجة فساد الإخلاص وفقدان قدسية الدعوة إلى الله تعالى.

وأما ثاني هذه الموانع، فإعطاء ما يداعب أنانية النفس الأمارة بالسوء وما تستشرفه من منزلة ومكانة تتوجه إليها الأنظار، وحب إقبال الناس وطلب توجههم بدافع من حب الشهرة وذياع الصيت الناشئ من التطلع إلى الجاه وحبه.

وأما ثالث الموانع فجعله النورسي في الخوف والطمع.[20]

خاتمة

هكذا تحدث النورسي رحمه الله عن قضية الإخلاص، وهكذا حاول بيان أهميته وفوائده وأسباب تحصيله وكسبه وتنميته، بل وبين أهم الموانع التي تعيق حصوله؛ وهو بكل هذا الحديث يوجه أنظار طلاب النور وخدام القرآن الكريم وأصحاب الدعوة إلى الله تعالى عامة، إلى أهمية هذا المسلك التربوي الإيماني الذي يدفع بالسائر فيه لا إلى تصويب علاقته بخالقه فقط، وإنما لتحقيق الحياة الآدمية الحقيقية التي يعيش فيها الإنسان داخل دائرة التكريم المسيج بواجب التكليف ،بما يجعله قادرا على فهم وإدراك مقاصد عمارة الأرض واستعمارها بما يحقق -في نهاية المطاف- أسمى مقصد من أجله خلق الإنسان، ألا وهو عبادة الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات:٥٦.

لقد أسهم النورسي -رحمه الله- بنظراته وكلماته في حلقات تغيير فكر الإنسان من خلال فقه القرآن الكريم في علاقته بفقه واقع الإنسان،الذي يظل محتاجا ومفتقرا على الدوام -مهما بلغ من العلم والتقدم المادي- إلى القرآن ليرشده ويذكره ويعلمه ويقوم

سلوكه كلما اعوج وزاغ عن الطريق القويم: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. الملك:٢٢

فما أحوج أبناء هذه الأمة إلى التعرف على النورسي وأمثاله، أولئك الذين عاشوا بالقرآن من أجل القرآن، يفكرون -بكل جدية- في سبل إصلاح حال الأمة وعودتها إلى ما كانت عليه من حال التمكين والخيرية والشهادة على الناس. كما أننا بحاجة ماسة إلى المزيد من التعرف والتعريف بهؤلاء الرجال داخل ثقافتنا العربية الإسلامية، إذ كثيرا ما نبخس هؤلاء حقهم في حديثنا وكتاباتنا وبحوثنا، خاصة وقد استطاعت الثقافة الاستعمارية غزو عقول العديد من أبناء هذه الأمة بما يكفي لتفريغ الذاكرة الجماعية، وتحقيق القطيعة مع تاريخ الأمة، وينشئ -من تم- خبالا ثقافيا خطيرا يسهم في توسيع مساحة القابلية للاستعمار الثقافي في حياتنا اليومية؛ الشيء الذي يجعل من نظراته القرآنية -التي ضمنها رسائله النورانية- واحدة من أهم تجارب التربية الدعوية في العالم الإسلامي الحديث؛ تلك التي نجحت في عزل الفساد عن وعي الكثيرين، وتركت بصماتها واضحة في العمق التاريخي لهذه الأمة التي قامت أول مرة بالقرآن.

إننا -بهذه الكلمات- لا نزكي على الله أحدا، ولكننا نعترف بأن النورسي-رحمه الله- وأمثاله من السابقين واللاحقين، يشكلون جميعا بوصلة هذه الأمة، بحيث تشكل كلماتهم ونظراتهم وتجاربهم ومواقفهم محطات مهمة لا بد من الوقوف عندها مليا لاستخلاص العبر من سير الرجال الذين تربوا بداخل المدرسة القرآنية، ففقهوا أن صلاح الأمة بعد فسادها، وقوتها بعد استضعافها، رهين بالأخذ بمنهاج القرآن، وأن البعث والإحياء لا يكونا إلا بتوفر الرجال الذين يرثون منهاج النبوة الصحيح، الذين يفقهون قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾. الْجُمُعَة:٢

* * *

الهوامش

[1] جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس فاس المغرب.

[2] ينظر بتفصيل الكلمة الثانية عشرة التي خصصها النورسي لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيرًا كَثِيرًا﴾ - الكلمات ص: ١٤١

[3] ينظر بتفصيل: المكتوبات ص: ٥٩٤-٥٩٥

[4] المكتوبات ص: ٤٢٥.

[5] الملاحق ص: ١٠٥

[6] صيقل الإسلام ص: ٣٤٩.

[7] من مثل: الدفاع عن اللغة العربية والمحاكم الشرعية والعلوم الشرعية...

[8] الملاحق ص: ١٣٥.

[9] ينظر بخصوص هذه النقطة: اللمعات ص: ٢١-٢٢.

[10] ينظر كذلك: الكلمات ص: ٦٤ و ١٣٨ / إشارات الإعجاز ص: ٢٣١ وما بعدها.

[11] ينظر الكلمات ص: ٣١-٣٧ و ٦٣.

[12] صيقل الإسلام ص: ٣٩٥.

[13] اللمعات ص: ٢٤١.

[14] اللمعات ص: ٢٤١-٢٤٢.

[15] اللمعات ص: ٢٤٢.

[16] نفسه ص: ٢٤٣.

[17] نفسه ص: ٢٤٦.

[18] اللمعات ص: ٢٤٦-٢٤٧.

[19] اللمعات ص: ٢٤٧.

[20] ينظر بتفصيل المرجع نفسه ص٢٤٧ وما بعدها. ويراجع للمزيد من التفصيل بخصوص هذا القسم من الموانع ما أشار إليه من دسائس أعداء الإسلام وأثرها في إحباط الإخلاص وكيفية التغلب عليها - المكتوبات- ص: ٥٣٣-٥٥٧.